نحو هوّية أخلاقية

أ.د. محمد جديدي

قسم الفلسفة- جامعة قسنطينة 2

djedidi@mail.usa.com

> **«Aucune société, aussi bien équipée soit-elle du point de vue technique, ne saurait fonctionner sans assise morale, sans une conviction qui ne résulte pas de l'opportunité, des circonstances et des avantages attendus. La morale, pourtant, n'est pas là pour faire fonctionner la société, mais tout simplement pour que l'homme soit l'homme. Ce n'est pas l'homme qui la définit selon l'arbitraire de ses besoins, de ses souhaits, tendances et désirs. C'est au contraire la morale qui définit l'homme… La notion d'un pacte international pour les droits de l'homme ne signifie rien d'autre que ceci : Les Etats et la société tout entière se placent sous la souveraineté du sentiment moral. Ils reconnaissent que quelque chose d'inconditionnel les domine, les dépasse. »**
>
> **Jan Patocka, Charte 77, Le Monde, 10 février 1977.**

تمهيد

لعله من الواجب الإشارة في بداية هذه الورقة إلى مدى استفادتي في فكرة هوية أخلاقية واستلهاميلها من الفيلسوفين: الأمريكي ريتشارد رورتي والفرنسي بول ريكوروكذلك فيما وجدت لها من ارتدادات وأصداء لدى مفكرين في مجال تداولنا الفكري العربي، كانت الهوية من بين اهتماماتهما الفكرية أقصد الأستاذ فتحي التريكي ضمن كتابه استراتيجية الهوية ونصوص أخرى له وأما الثاني وأقصد به الأستاذ فتحي المسكيني في كتابه الهوية والزمان وغيره من كتبه.

أما عن الفيلسوفين وهما داخل مجال تداولي فكري غربي أمريكي وأوربي:

الأول لأنه ينتسب لفلسفة براغماتية ـ هو محرّكها نحو التجديد ـ تؤمن وتؤكد بأنها فلسفة للمستقبل ولذا فالجانب العملي الإتيقي أخذ حيّزا هاما من تنظيرها التحليلي والنقدي باتجاه القادم.

أما الثاني فقد سعى إلى التأكيد على الجانب الإتيقي للفلسفة، إذ يكفي أن يخلص في نهاية مساره الفلسفي إلى تلخيص جهوده في الذات عينها كآخر، طارحا مسألة الهوية في صلة الأنا بالآخر.

لقد كثرت الخطابات حول الهوية وتعددت وجوهها وملامحها الإيديولوجية والدينية واللغوية والأنثربولوجية والسياسية. كما كثرت الدراسات التي نقبت حول مصادرها وجذورها، أسسها وسياقاتها (منابع الذات، لتشارلز تايلور) كلما تأزّم الوضع الإنساني بما يوحي أن البحث في الهوية هو نتيجة لمقدمات أفرزت توترات ومآزق تحتم على الفاعل البشري والمنظّر لفعله على السواء ارتكاسا وانعطافا على الذات الهووية بحثا عن منفذ للأول بمثل ما يكون تفسيرا للثاني.

في ظل هكذا تصورات عن الهوية ومآلاتها، هلا تصورنا في مجالنا التداولي أو فكرنا في هوية أخلاقية ؟

وقبل ذلك فيما تتمثل هذه الهوية وما المقصود بها ؟

وهل بإمكانها أن تستوعب الخطابات الأخرى إذا ما أحسن توصيفها وتوظيفها لصالح الإنسان ؟

هلتفكرنا هويتنا بمنظور أخلاقي على اعتبار أن الأخلاق هي كيف يجب أن نحيا ؟ من مجرد أخلاق تدبير الذات على مستوى الفرد إلى مستوى

الجماعة وأخلاق تدبير المدينة وإعطائها بعداكوسموبوليتيا كما أرادته الرواقية قديما.

الهوية والزمان

تفهم الهوية في كثير من الخطابات، التي اتخذتها متراسا، من الزمان نقطة ثابتة ولا ترى في نقاطه الماضية والحاضرة والمستقبلية إلا نقطة واحدة تسمّيها البداية أو الأصل أو الأساس أو المبدأ ـ كما يكون ذلك في أساس البناء المادي ـ وتجعلها منطلقا وهدفا في الآن نفسه. فهي تتقيّد بتلك اللحظة الزمنية، لحظة الميلاد والانبعاث، وتصبغ عليها إطارا أرثودكسيا لا تحيد عنه ولا تثق بتطورّه أو تحوّله إنما تثبته بحجج المطلقية والكونية وتجري في تأكيده على سنن ونواميس الجوهرانيةوالماهوية وعوض أن تتخذ من التجارب العملية منطلقا ورافدا قادرا على التغيّر والتطور، تغوص بعيدا في البحث عن طبيعة بشرية مزعومة.

انطلاقا من وعي لدى الفرد بالانتماء والشعور بالانتساب إلى جماعة ما حيث تبدأ عملية الوعي بالبحث عن طرائق تكريس هذا الانتماء ضمن أطر جماعية تنزع بداية إلى تمتين نواة الجماعة عبر خطاب الهوية ووفق قيم تسعى لبثها في روح وجسد تلك الجماعة ثم توسيع نطاقها بكل الأدوات التي تراها مساعدة على تحقيق هذا التكريس للهوية، سواء بالدين أو اللغة أو الاقتصاد أو السياسة أو غيرها من الوسائل المستجدة وذات الفاعلية والنجاعة في بلوغ هدف ترسيخ الهوية.

فضمن علاقة باتجاهين من الأنا إلى الآخر والعكس، تنبني هذه هوية أكثر اتساعا من أنا، إنها هوية الـ "نحن" التي لا تتقوم من دون إشارة إلى مصادر أخلاقية للآخر. وإذا لم تراع هذه المصادر تتوتر عندها العلاقة وتظل غامضة بما قد يؤدي إلى التصادم والتنازع فالحرب. إن نحن كهذه لا تعتد إلا بأخلاقها ومصادرها جاعلة منها هوّية أحادية وغامضة، تتحدد معها معايير القبول والرفض للآخر بناء على رؤيتها الواحدية واللا

تفاعلية ((وباسم هذه الرؤية[يقول سعيد بنكراد في تقديمه لكتاب إمبرتو إيكو دروس في الأخلاق] تمت في كثير من مراحل التاريخ مقاضاة الآخرين والحكم على سلوكهم، بل وإعلان الحرب عليهم. فالـ ((نحن)) التي قادت الحرب في أفغانستان والعراق وغيرها من مناطق العالم آتية من خارج التاريخ، إنها ثمرة من ثماره، وجزء من سيرورة حضارية تشكلّت باعتبار هويتها تلك في علاقتها بالآخرين لا بانفصام عنهم.)) [1]
حتى وإن كان حلم البشرية القديم في تحقيق هذا الـ نحن السلمي قد رأى النور في القرن العشرين إلا أنه ظل إطار هوويا أجوف لا تحكمه الأخلاق بقدر ما تحكمه المصالح وعوض أن يُنشد باسمه السلام الدائم صار مصدرا لإعلان الحروب وإن كانت الذريعة دوما حفاظا على السلم.

ووجد المثقفون أنفسهم ـ دعاة السلام ـ منقسمين بين انزواء تاريخي بصمت، مفضلين الحقيقة عن الأخلاق بينما اختار زملاؤهم الولاء للجماعة التي ينتمون إليها؛ وبالتالي مارسوا اختيارهم الإتيقي بشكل مأساوي[2] فزادوا من تعميق شعور غير معلن ببطلان هوّية الـ نحن المزيفة والتي في الحقيقة ما هي إلا تمركزا عرقيا لا يشكّل هوية منفتحة، تستوعب الآخرين بقدر ما إنها هوية مستوعبة لا تنظر إلا لما بحوزتها من مصادر أخلاقية باحثة عن خلاص الفئة التي تكوّن نواتها.

تبدو هنا مسألة الهوية ـ في بناء تصورها للآخر ـ مرتبطة أكثر بإرادة المعرفة لأجل الهيمنة وهي تبني هذا التصور الهووي لذاتها۔ كما أقامته الحضارة الغربية ـ تستبعد من مجالها وتمنع غيرها من هذا البناء بل وتعمل على محو ما له من إرهاصات هذا الوجود عبر سياسات الإقصاء والتهميش، هذا إن لم يكن بالعنف الممارس في شكل استعمار واحتلال.

لقد نبّه إدوارد سعيد إلى خطورة هذا التبنّي للاستشراق كغطاء إيديولوجي للهيمنة وتكريس إرادة التفوق لمنع الآخر من الالتفات لغيريته أو الإعلان عنها. وقد عبر عن هذا فتحي المسكيني مُعلقا على موقف إدوارد سعيد بقوله: ((لقد وجد إ. سعيد المضمون الثقافي للهوية الغربية: إنه فعل مماهاة (identifying) «النحن»(و إ. سعيد الدارس يتقمص هنا شخصية «النحن»الغربية) ضد «الآخرين». أما الاستشراق فهو نمط نموذجي من هذه المماهاة. لذلك فالهيمنة ليست فقط مادية، إنها ليست مجرد سيطرة، بل هي في عمقها نمط من الهيمنة مأخوذة هنا بوصفها نمطا من «الوعي» بالآخر. إن الهيمنة تقتضي استعمال آخرية الآخر استعمالا أداتيا لبناء هوّيتنا. لكن هذا الاستعمال لا يصبح هيمنة إلا إذا بنينا تلك الهوية على تفوّق (superiority) «طبيعي» أو «ماهوي» على ذلك الآخر.))[3]

هل بعد هذا الانكشاف، في تأسيس الهوية على إرادة الهيمنة المبنية بدورها على إرادة المعرفة، لم تبق سوى الأخلاق كسبيل في توطين هوية إنسانية مشتركة؟ هوية إنسانية شاملة تساهم فيها كل الذوات بغض النظر عن مكوناتها الثقافية والتاريخية، وبعيدا عن مواقعها الحضارية في التقدم والتراجع، وبمنأى عن معتقداتها الدينية واللاهوتية، بشكل لا يعيق تقديمها وتجسيدها على وجهها الإنساني، الذي تتبدى معه إنسانية الإنسانية بحيث يصير فهم الهوية الأخلاقية هي جملة العلاقات البشرية التي تكون للذات مع الآخرين [4] في إطار من مبادئ وقيم تفرضها مؤسسات سياسية تميّزها فضائل الحرية والتسامح والعيش المشترك. وبالقابل هل أسطر الغرب هويته على أنقاض الآخر الشرقي أو غيره عبر مشروع الاستشراق ؟

أسطرة الهوّية

إن التشكّل الحديث للهوية، إذا جاز هذا التعبير، جعل من الهوية أسطورة أو من خطابها نوعا من الأسطرة؛ إذ أصبحت الهوية بمقابل ما يعرف لدى علماء الاجتماع بالأسطورة المؤسسة لدى جماعة معينة. فكل مسعى لترسيخ قضية الهوية ضمن مشروع دستور أو تقنينها أو السعي لتمكينها من ذلك هو في النهاية مسعى للأسطرة، إذ تنبني هذه الفكرة على فهم أولي للهوية ومحدداتها وخصائصها، يتجذر ضمن المخيال الاجتماعي لأفراد جماعة يتمّ بعده تضمينه في إطار مشروع اجتماعي وسياسي تلعب قنوات الدولة وهيئاتها دور الضامن لاستمرار هذه الأسطورة وشرعنتها سواء في بعثها واستنباتها من ماضي سحيق أو استشرافها والوعد بتمكينها في مستقبل. وكلما ارتبكت الذات الباحثة عن هويتها لا ينبغي أن "تكون أزمة الهوية الذاتية استبدال احترام الذات بكراهية الذات"[5] أو بكراهية الآخر عبر التعصب للذات

هل ينبغي أن تؤسس الهوية على أسطورة، أسطورة الثقافة، أسطورة الملّة، أسطورة الأمة، أسطورة الذات، أسطورة اللغة وأسطورة العرق، كمظاهر سلبية للانغلاق وللكراهية والتعصب أم ينبغي الاعتزاز بها والنظر إليها بوصفها مظاهر إيجابية تحافظ في النهاية على التنوّع والتعدد والاختلاف؟

يتخذ البناء الهووي من التاريخ ومراحله مسارا وخطا تحدده محطات بعينها وغالبا ما تكون أصوله أسطورية، تشكّل من منظور أفراد تلك الجماعة الإسمنت الذي يبقي على تماسك الجماعة ووحدتها. ولا يتوانى كُتّاب ومؤرّخو تلك الجماعة بالكتابة والتعليم المتضمنين جذور الجماعة قصد ترسيخها وتلقينها. "ففي العصر الوسيط، كانت الهوية تحيل إلى سمات مشتركة بين جماعة ما: وهي في قلب تأسيس المجتمعات......إن

معرفة ماضي مشترك والمطالبة به، يكون له من الوجود وقيمته، بقدر ما يطمئن ويدرس ويساهم في هوّية شعب ما." [6]

بهذه الكيفية تتم أسطرة الهوية وإضفاء المشروعية عليها عبر اللجوء إلى الماضي وتسليطه على الحاضر والمستقبل فتجعلها هوية ستاتيكية، ساكنة ترفض التغير وتكون ككتلة واحدة يصعب اختراقها أو النفاذ إليها وكل محاولة من هذا القبيل تشكل تهديدا ينبغي صده أو مقاومته حفاظا على الهوية كأسطورة خالدة.

بيد أن التحديد في بناء الهوية انطلاقا من محادثة واعية تشكل في نهاية المطاف ثقافة تستند إليها الهوية تصير هوية ثقافية محددة أو متسمة بخصائص بنتها هي وطورتها وحافظت عليها. ومن الصحيح القول بأن الإنسان وليد ثقافته ونتاج لها كما يقول فتحي التريكي:[7]

Certes, l'homme est d'abord et toujours l'homme d'une culture. Son identité se fait singulièrement par son appartenance à sa culture de base.

لكن وفي ظل واقع عولمي فرض نفسه ويفرضها باستمرار يوما بعد يوم تجد طروحات الأحادية الهووية والستاتيكية نفسها مهددة ومعرضة أكثر فأكثر للانحسار والاندثار، إن لم تسارع بالتكيّف المرن مع معطيات العولمة ووقائعها والتعاطي الإيجابي مع مستجداتها وتطوراتها وتلك هي رؤية الثقافة النقدية التي نادى بها المفكر فتحي التريكي وتصورها العامل الأقرب والأنسب - حتى لا نقول الوحيد - للانخراط بنشاط وفعالية ضمن هوّية عولمية قد تسع وتستوعب الجميع حيث يقول التريكي:

إنها[أي هذه الثقافة النقدية] تساهم في قابلية تحول هويتنا كي تنقذها من الانغلاق الهووي. وتختبر الأساس الإنساني، بمعنى حرية الحكم وحرية التفكير. ومن دون قوة النقد، يفقد الشعب هويتّه ويُستلب في الدوغمائية والتعصب.[8]

هكذا يدعو التريكي ويشاطره في هذا نخبة أخرى من المثقفين العرب الحاليين والمشتغلين بالحقل الفلسفي(منهم فتحي المسكيني ومحمد

محجوب وعلي حرب وعبد السلام بنعبد العالي ومحمد المصباحي وآخرين) إلى تبني هذه الاستراتيجية وما يجعل من مرتكزات الهوية وبقدر ما تتسم به من صلابة وتماسك بالقدر نفسه الذي يجعلها مرنة وديناميكية، قادرة على مراجعة ذاتها بغية التأثير في واقع شائك، ملغم بشتى أنواع الخطابات الدوغمائيةوالشوفينية وكي لا يترك عرضة لأطروحة تشهد على إفراز إنسان ميزونتروبي بحكم هويته مبغض وحاقد على الآخرين إنها تريد توجيه الإنسان نحو نزعة فيلونتروبية لا تجد في سبيلها سوى محبة البشر هويّة.

عن الهوية الحديثة

الذات اختراع حديث ناتج عن وعي انزاح فيه الفكر من الموجود الأنطولوجي إلى الموجود المعرفي عبر فلسفات الذاتية التي تبلورت مع ديكارت وفلاسفة العصر الحديث بجعلهم الذات مركزا وجوديا مستقل ذاتيا متحررا ومفصليا في شبكة علائقية مع باقي الموجودات والكون بعامة.

هل تعدّ الهوّية تشكّلا حديثا لم يسبق أن طرح في أزمنة سالفة عن العصر الحديث ؟ وتبعا لذلك هل هو تابع لبروز الدولة ككيان سياسي بمواصفات غير معهودة ؟ الشيء الذي أعطى للهوية ليس معنى أنطولوجيا وميتافيزيقيا للوجود الإنساني في الكون وإنما ككيان متفرد ضمن إطار سوسيو سياسي تميز بإعلاء الصيغة الجمعية للهوية على باقي صيغها ذات الأبعاد الذاتية أو الفردية، خاصة وأن مراحل صعبة مرت بها تلك الجماعات التي كانت تبحث عن سند هووي في مطالبتها بالحرية والاستقلال في انتفاضتها وثورتها، كما حدث في ثورات أوربية أو أمريكية في القرنين 18 و19 وفيما بعد ثورات عربية وعالم ثالثية (ثورة الجزائر) ضد الاستعمار، اتخذت فيها الهوية طابع الوطنية والقومية.

لم تأخذ الهوية صيغتها التشكيلية الحديثة إلا بسبب تخوفها من فقدانها أمام التحديات المفترضة أو المتوهمة وحولها يقول يقولداريوششايغان: "إننا نتحدث عن التحدي المعاصر الذي يحدث تحولات فكرية وفنية في آسيا؛ ونأسف لفقدان الهوية الذي يهدد الحضارات التقليدية؛ كما نرثي لحالي هذه الحياة المتفاوتة التي نحياها،..." [9] حيث تتميز هذه الحياة بنوع من الازدواجية يختلط فيها القديم بالجديد والعلمي بالروحاني ما يجعلهما في تنافر وتصادم، تجد الهوية إزاءه، أي حيال هذا التصادم، في مأزق وانسداد يصعب معه رفع التحدي ورأى فيه شايغان أنه يستوجب خوض معركة وصراع.

تبعا لهذا ليس السؤال عن إمكانية قيام أو وجود فلسفة عربية إلا سؤالا في الهوية، في جوهر هويتنا، من حيث استعادة أو استئناف القول الفلسفي المعاصر بعيدا عن لحظات الدهشة النهضة بصيغتها اللاهوتية أو المدنية وهو سؤال قمين بتناول ومساءلة وجودنا وموقعنا في الكون. هذا ما أشار إليه فتحي المسكيني في كتابه الهوية والزمان حيث يذكر: "نحن نفترض إن إمكانية وجود فلسفة عربية معاصرة هي رهن بقدرة المتفلسفة لدينا على تملّك هذه التجربة الطريفة التي عرفتها لفظة "هوّية" منذ تنصيب الفلسفة في أفق الملة مع الكندي إلى الصيغة الراهنة من الريطوريقاالهووية للعرب الحاليين." [10] لئن كانت هويتنا بحاجة لهذا الجهد الفلسفي في تحديث مشروع حوار أسلافنا مع الإغريق كما بدأه الكندي والفارابي وبن رشد وأصبغوا عليه، وفق ما يذهب إليه المسكيني، من دلالات وانزياحات مفهوم الهوية بين النحوي والمنطقي والأنطولوجي، فإنه من الضروري كذلك التشدّيد اليوم على بعده الإتيقي كي نندرج في حظيرة الإنسانية وليس خارجها.

ختام:

إذا كانت الأخلاق هي أهم الفروع الثلاثة لشجرة الفلسفة كما اعتبرها ديكارت فذلك يعني "أن أهم حقيقة جوهرية واضحة مألوفة عن الإنسان هي أنه يحمل الثمار والأزهار التي تبدو وكأنها تنتمي إلى مرتبة أرقى من أصولها." [11]

قد يكون عزاء الإنسان الراهن في هوّية أخلاقية تنقذه من براثن الشر وتعيده إلى إنسانيته التي ليست شيئا آخر سوى أخلاقه. إذا ما عزم هذا الإنسان على التخلص من تجاذبات الماضي وتقييده بالتوجه صوب مساءلة مستقبله وعما يريد لنفسه أن يكون بتساؤله عن مصير هويته وبما يريده لها أن تكون. والهوية لا يكتمل منتهاها حسب ريكور وفي أبعادها اللغوية والعملية والسردية إلا ببعدها الأخلاقي.[12]

وعوض من أنا ؟ سيكون سؤاله ما أنا ؟ تماما مثلما سيستبدل سؤال "النحن" : من نحن ؟ بما نحن وما عسانا أن نكون في المستقبل ؟ إن توجهنا الإتيقي وحده الكفيل بتقديم إجابات عن هكذا سؤال أو نحو هوّية أخلاقية.

الهوامش:

1 إمبرتو إيكو دروس في الأخلاق، ترجمة، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010، ص.8.

2إمبرتو إيكو دروس في الأخلاق، ترجمة، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010، ص.28.

3 د. فتحي المسكيني، الفيلسوف والإمبراطورية: في تنوير الإنسان الأخير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص. 132.

4. Richard Rorty, Essays on Heidegger and otheressays, Volume 2, Cambridge UniversityPress, 1991, p.193.

5. بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق، د. جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص. 339.

6**Émilie** Deschellette, « L'identité à l'épreuve du mythe : la fabrique des origines, d'Énéas à Brutus », *Questes*, 24 | 2012, 66-84.

7Fathi Triki, La stratégie de l'identité(essai), Arcantères Éditions, Paris, 1998, p.133.

8Fathi Triki, La stratégie de l'identité(essai), Arcantères Éditions, Paris, 1998, p.133.

9داريوششايغان، أوهام الهوية، ترجمة، محمد علي مقلد، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، ص. 5.

10فتحي المسكيني، الهوّية والزمان: تأويلات فينومينولوجية لمسألة " النحن"، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2009، ص. 9.

11رالف بارتون بري، إنسانية الإنسان، ترجمة، سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة المعارف، بيروت، 1961. ص.9.

12. بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق، د. جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص. 341.